محمد علي الخالدي*

يوتوبيا أم تبشير صهيوني؟ قراءة في رواية هيرتسل *Altneuland* (البلد القديم الجديد)

قبل قرن من الزمان أو أكثر قليلاً، في ٢ تموز / يوليو ١٨٩٩، وفي عربة قطار متجه من باريس إلى فرانكفورت، اتكأ صحافي يهودي بارز من فيينا إلى المسند، ونظر خارجاً إلى المشهد الأوروبي الشمالي، وبدأ يكتب أوائل أسطر رواية تجري أحداثها في فلسطين، حيث كان أمضى عشرة أيام لا غير خلال الخريف الماضي (٢٦ تشرين الأول / أكتوبر ـ ٤ تشرين الثاني / نوفمبر ١٨٩٨).[١] وقد واصل العمل على الرواية بصورة متقطعة طوال السنوات الأربع التالية، بحيث نشرها في سنة ١٩٠٢. واليوم يعرف ثيودور هيرتسل كأبرز شخصية في الحركة الصهيونية. وتوصل هذا الرجل، ذو المهارات السياسية والدبلوماسية الفريدة، إلى النجاح في عقد أول مؤتمر صهيوني، وبذل جهوداً حثيثة لضمان تأييد القوى العظمى لإنشاء دولة يهودية. وهو إذ يُذكر كمنظّر ومؤلف إنما يُذكر بكتابه القصير *Der Judenstaat*، أي "دولة اليهود". أمّا روايته *Altneuland* (البلد القديم الجديد) فقلما يؤتى إلى ذكرها، ونادراً ما تستذكر.

ولمّا كانت روايته هذه مجهولة إلى هذا الحد، فمن المستحسن أن نبيّن منطلقها الأساسي وبنيتها الروائية. تبدأ الرواية عند منقلب القرن في فيينا، بوصف للحياة اليهودية في أوروبا الوسطى. ويمكن تصور المشهد الروائي باعتباره مكوناً من ثلاث دوائر من اليهود الفييناويين. أمّا الدائرة الأولى فتضم طبقة من المثقفين ذوي المواهب، المتدربين على المهن الدنيوية، كالقانون والطب والصحافة، والعاجزين عن العثور على عمل بسبب العداء للسامية. بطموحات عالية وفرص عمل متدنية، يرتاد هؤلاء مقاهي فيينا، يقرأون الصحف، يرتشفون أكواباً لا نهاية لها من القهوة، يطلقون العنان لأحلام اليقظة التي يتزوجون فيها بنساء يهوديات وارثات للثروة. والدائرة الثانية تضم أفراداً من المجتمع الراقي المتجه نحو الانحطاط، يزدهرون في صالونات تجار يهود أثرياء، هم آباء وأعمام وأخوال النساء الوارثات اللواتي يطفن في الكثير من أحلام اليقظة. فالبورجوازية تعتاش من التجارة والصناعة، إضافة إلى الاكتساب من المهن التي قلما تزاولها الأمم من غير اليهود، وتضم في صفوفها ملوك الصناعة كما تضم أرباب المتاجر الأثرياء. أخيراً، الدائرة الثالثة، وتضم اللاجئين المعدمين والمسحوقين الذين هاجروا من بولندا ومناطق أُخرى إلى الشرق منها، حيث يمارس العداء للسامية بشكل سافر إلى حد أنهم يُضطهدون يومياً ويتعرضون لخطر الانقراض.

ويجد أحد الأشخاص الأساسيين، وهو دكتور في الحقوق يدعى فريدريش لوينبرغ، نفسه على تقاطع هذه الدوائر الثلاث. وهو ينتمي بوضوح إلى الدائرة الأولى المؤلفة من المهنيين ذوي الثقافة العالية والعمالة المتدنية، وهو يدغدغ مطامح الزواج بامرأة شابة من معارفه تضعها ثروتها في موقع من الدائرة الثانية لا يُطال. وعندما تتبخر

* أستاذ الفلسفة في الجامعة الأميركية في بيروت.

آماله بالزواج بالوارثة، التي طالما حلم بها، بسبب زواجها المرتب بسواه، فهو يستمد شيئاً من الرضا عبر مساعدة أُسرة من اللاجئين الذين ينتمون إلى الدائرة الثالثة. لكن التجربة تتركه قانطاً كئيباً، ولمّا لم تكن أمامه فرص جدية للعمل فهو يجد نفسه في مأزق طريق مسدود. وفي نزوة عابرة يستجيب لوينبرغ لإعلان في صحيفة يطلب "شاباً مثقفاً مستميتاً ومستعداً لأن يقوم بتجربة أخيرة في حياته."[٢] والشخص الذي وضع الإعلان كان رجلاً من النبلاء الألمان جنى ثروة في أميركا. ولمّا خاب أمله من الحضارة ويئس من الناس، أراد أن ينسحب من المجتمع ويعتزل في جزيرة في جنوب المحيط الهادئ بصحبة رفيق ذكي. فيوافق لوينبرغ على أن يكون نديماً لكينغزكورت المستوحد (الذي حرّف اسمه ليوافق اللغة الإنكليزية خلال إقامته بأميركا)، ثم يسافران معاً من دون تأخير نحو البحار الجنوبية. لكن قبل مغادرة مياه البحر الأبيض المتوسط، يقومان بالتفافة نحو الأراضي المقدسة. وهذا إنما يتم نتيجة إلحاح كينغزكورت، وعلى الرغم من معارضة لوينبرغ الذي يعلن بصراحة: "لا صلة لي بفلسطين... إنها لا تعنيني. لقد غادرها أسلافي منذ ثمانية عشرة قرناً..."، ويختم برد ساخر على ولي نعمته: "أظن أن أعداء اليهود وحدهم يستطيعون أن يسموا فلسطين أرض أجدادنا" (ص ٣٩).

ويجد الأوروبيان فلسطين أرضاً كئيبة، ومع ذلك ففيها عصبة صغيرة من الرواد اليهود الذين راحوا ينشئون عدداً من المجتمعات المتحضرة. وبعد إقامة قصيرة هناك، يقرران استئناف رحلتهما إلى البحار الجنوبية. عند هذه النقطة يحدث انقطاع مدته اثنتان وعشرون سنة في الرواية، إذ ينزوي لوينبرغ وكينغزكورت في منفاهما الاختياري. وعندما نلتحق بهما نجدهما قد قررا أن ينهيا عزلتهما في المحيط الهادئ وهما في طريقهما إلى الحضارة ليمنحا البشرية فرصة أُخرى. ولمّا بلغا البحر الأبيض المتوسط مرة ثانية، أصر كينغزكورت على زيارة فلسطين، ليجد أنها تغيرت تغيراً تاماً. فحيث كانت تمتد أرض يباب ثقافياً، نهض مجتمع يهودي مزدهر، بات نموذجاً للبشرية جمعاء. ويتكون القسم الأكبر من الرواية من جولة مفصلة في هذا المجتمع نُظمت إكراماً لهذين البطلين اللذين يقرران، في نهاية الرواية، الانضمام إلى المجتمع اليهودي الذي يَسمه هيرتسل بـ "المجتمع الجديد" أو "البلد القديم الجديد".

قبل وبعد

صورتا فلسطين اللتان يصورهما هيرتسل قبل الاستعمار اليهودي وبعده، هما أبرز سمات هذا النص. خلال الزيارة الأولى التي تصفها الرواية، والتي وضعت في سنة ١٩٠١، يرسم هيرتسل صورة للمدن الفلسطينية منفِّرة تماماً، ويصف القرى الفلسطينية بأنها أشبه بحظائر الحيوانات. وتمثِّل يافا في عيني روايته مشهد "الانحطاط الأقصى": "فالأزقة قذرة، ومهملة، ومملوءة بالروائح الكريهة." و"البؤس منتشر في كل مكان بأسمال الشرق البراقة البالية. أتراك فقراء، عرب قذرون، يهود جبناء يتكاسلون هنا وهناك ـ كالمتسولين، بلا أمل" (ص ٤٢). أمّا ريف فلسطين فهو مشهد غير متناه من القفار الخالية، والرمال، والمستنقعات. "سكان القرى العربية الضاربة إلى السواد يبدون كقطاع الطرق، وأولادهم العراة يلعبون في الأزقة القذرة" (ص ٤٢). أمّا "هضاب اليهودية المجردة من الغابات ومنحدراتها العارية وأوديتها الصخرية الشاحبة" فشواهد على إهمال سكانها الأصليين (ص ٤٢). يقيناً إن الأراضي المقدسة لا تزال تختزن شيئاً من الجاذبية في عيني لوينبرغ، بطل هيرتسل، إذ إن منظر القدس في ضوء القمر يؤثر فيه بقوة إلى حد أنه يملأ عينيه بالدمع. غير أن السحر لا يدوم إلّا حتى طلوع الشمس، لأن القدس في النهار منفِّرة كيافا: "صياح، روائح، بلبلة من الألوان القذرة، حشود من الناس المهملين في أزقة عفنة بالية، متسولون وذوو عاهات، وأطفال جياع، ونساء صارخات، وباعة صيّاحون" (ص ٤٤). "لم يكن في وسع القدس التي كانت فيما مضى مدينة ملكية أن تنحدر إلى أدنى من هذا الدرك" (ص ٤٤).[٣]

يشكل أهالي البلد، على امتداد هذه الفقرات، لطخة في مشهد فلسطين. وما يشوه جمالها وينحط به هو وجود السكان الحقيرين النتنين الذين يقيمون بالبلد، والذين يجعلونه غير صالح

للسكن، للأوروبيين على الأقل. أمّا سمات المشهد الطبيعي التي يأسف لها، فهي نتيجة قرون من سوء الاستعمال والإهمال من قبل أهل البلد الذين ينجحون في تنفير حواس البصر، والشم، والسمع، كلها معاً. ويحمل مشهد فلسطين آثاراً ظاهرة في كل مكان على الطريقة التي جُرِّح فيها وسُيِّب، حتى لكأن الأرض نفسها تحتج على معاملة السكان المحليين لها. ومع أن معالم التدمير البشري تُطْمَس تحت جنح الظلام، فإن الوهم يتبدد مع بزوغ الفجر. ويتبدى هذا بأجلى صوره في المدن، ولا سيما القدس، التي لا تبدو مغرية إلّا في الليل عندما يختبئ سكانها بعيداً عن الأنظار. أمّا في ضوء النهار الساطع، فإن لوينبرغ يراها على الضد من ذلك غبشاً منفراً من الأمراض والفاقة. فكأن هبوط الليل يعمل عمل حيلة تتيح للمشاهد الأوروبي تنقية المشهد من كل أثر للسكان المحليين، وهذا ما يحمل في طياته إمكان تحويل هذا الوضع الموقت إلى حال مستديمة.

بعد انقطاع اثنتين وعشرين سنة في الرواية، وعقب الاستعمار اليهودي، تحول البلد كله تحولاً تاماً. فعندما يطأ بطلا رواية هيرتسل أرض حيفا سنة ١٩٢٣ يكتشفان مدينة عالمية: فالمباني تضم مصارف استعمارية وشركات شحن بحري أوروبية. ومع أن المدينة كلها تبدو "أوروبية تماماً"، فثمة "كثير من الصينيين، والفرس، و[حتى] العرب في شوارعها..." (ص ٦١). ويقول هيرتسل: "ثياب شرقية براقة تختلط بأزياء أوروبية رصينة، لكن مع غلبة الأواخر" (ص ٦١). وفي هذه الأثناء تسرع سيارات مستقبلية بلا صوت، وتئز القطارات الكهربائية من فوق الرؤوس (ص ٦٢). وعندما ينظر لوينبرغ إلى حيفا من جبل الكرمل، يختلف المزاج عن النظرة إلى القدس والتي سبقت بأكثر من عقدين من الزمان. ويكتب هيرتسل، واصفاً هذا التباين، قائلاً: "كان ينظر يومها إلى الموت في ضوء القمر؛ والآن تتألق الحياة فرحاً تحت الشمس" (ص ٦٩). أمّا القدس، "التي كانت فيما مضى مدينة ملكية"، فقد نهضت هي أيضاً من الموت إلى الحياة. فالأحياء الحديثة في حاضرة من حواضر القرن العشرين تتقاطع فيها سكك قطارات الشوارع الكهربائية. ويزعم هيرتسل أن المدينة القديمة لم تكد تتغير ـ باستثناء إعادة بناء هيكل سليمان (ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨). وهو لا يفسر ما حل بالأماكن المقدسة الإسلامية التي تقع في الموقع الذي يعتقد أن الهيكل كان قائماً فيه. وفي مكان آخر، يشير عابراً إلى "مسجد عمر" (وهي تسمية لقبة الصخرة مغلوط فيها وشائعة)، غير أن المقامات الإسلامية لا تحتل، فيما يبدو، أولوية عليا. كما أن التغير الأخطر شأناً لا يكاد يُومأ إليه: فلم يعد في المدينة القديمة أية مساكن خاصة، بحيث باتت المدينة المقدسة لحسن الحظ "خالية من الدرن، والصخب، والروائح الخبيثة" (ص ٢٤٨). وهذا يكفل رفاهية الحجاج (الأوروبيين) الذين كان عليهم في الأيام السالفة "أن يتحملوا الكثير من المشاهد المقززة قبل أن يصلوا إلى مزاراتهم" (ص ٢٤٨).

وكما أن وجود السكان العرب كان السبب في جعل البلد منفراً في نظر رواية هيرتسل في سنة ١٩٠١، فإن غيابهم هو ما يعيد إليه الاعتبار. ويبدو هذا بأجلى مثال في القدس، حيث طُرد السكان المحليون من المدينة القديمة، وهي خطة يأتي هيرتسل إلى ذكرها في يومياته أيضاً.[٤] ونفهم من وصف حيفا أن العرب ما زالوا يعيشون في فلسطين، لكنهم موجودون فيها كوجود الصينيين والفرس، لا بما هم سكان أصليون وإنما باعتبارهم أقلية من جملة أقليات أُخرى. ومن دواعي السخرية إذاً أن نجد هيرتسل يضع أشنع تباين بين فلسطين ما قبل الصهيونية وما بعدها على لسان الشخصية العربية الوحيدة في الرواية، وهي شرقي متزلف يدعى رشيد بك. ففي أحد المشاهد يتساءل كينغزكورت هل "أن سكان فلسطين الأقدم عهداً" تدهورت أحوالهم جراء الهجرة اليهودية، وهل اضطروا إلى مغادرة البلد، على الرغم من أن بعض الأفراد المتفرقين كان من المستفيدين؟ ويستبعد رشيد مسألة الطرد ويقول له: "كانت نعمة كبيرة علينا جميعاً"، ويضيف أن أولئك الذين لم يكن لهم شيء يبدأون منه هم الذين استفادوا بلا شك. ثم يمضي مفسراً أن لا شيء كان أتعس حالاً من قرية عربية في أواخر القرن التاسع عشر، مؤكداً بذلك انطباع لوينبرغ السابق. وهو يخبر مستمعيه الأوروبيين أن أكواخ الفلاحين كانت "لا تصلح لأن تكون زرائب" قبل وصول اليهود،

كما أن الأطفال كانوا "ينشأون كالبهائم الغبية" (ص ١٢١ ـ ١٢٣). وتذكّر أقوال رشيد بالوصف المتقدم للريف الفلسطيني، وتستعمل شهادة أدلى بها السكان الأصليون عن كون المشروع الصهيوني مبرراً خلقياً. وفي المشهد ذاته، يحذر أحد الأدلاء الصهيونيين كينغزكورت ولوينبرغ: "لا تتوقعا رؤية أوكار القذارة التي كانت تسمى قرى في فلسطين" (ص ١٢٠). وهذه الملاحظة المشحونة تدل على أن القرى العربية قد محيت تماماً من الجغرافيا الفلسطينية.

وعلى الرغم من دلائل لا تنكر على أن معظم أهل البلد الأصليين قد طرد، فإن الكاتب الإسرائيلي شلومو أفينيري يعتبر أن رواية هيرتسل هذه تظهر "تسامحه وإنسانيته العالمية الشاملة، المميزة لنظرته الأوروبية الوسطى ورؤيته الصائبة للحقوق المدنية بما هي متعلقة بالفلسطينيين العرب...". ثم يعترف بأن "هيرتسل أغفل، فيما يبدو، إمكان نشوء حركة وطنية في صفوف السكان العرب، رداً على الهجرة اليهودية ومحاولات الصهيونية تحويل البلد إلى وطن قومي لليهود."[٥] لكن أفينيري لا يتساءل كيف تمكن مؤسسو المجتمع الجديد من بسط سيطرتهم على البلد، وماذا حل بالفلسطينيين العرب الذين كانوا عند منقلب القرن أكثرية السكان الساحقة؟

ثلاث مفارقات

لقد عرضنا لوصف هيرتسل الخيالي لفلسطين في سنة ١٩٠١ وسنة ١٩٢٣ تمهيداً لطرح تفسير معيّن لروايته، وهو تفسير يصدر عن ثلاث مفارقات تبرز بعد التبصّر في عمله. أمّا المفارقة الأولى فتتعلق برفض هيرتسل الصريح والمتكرر لوسم اليوتوبية بصورة عامة، وبالإشارة إلى روايته بالتحديد. وهو يحذر في التمهيد لكتابه "دولة اليهود"، الذي نشر قبل أربعة أعوام من شروعه في كتابة الرواية: "عليّ، بادئ ذي بدء، أن أحافظ على مخططي من تهمة اليوتوبية من قبل النقاد السطحيين الذين ربما ارتكبوا خطأً في الحكم لو لم أحذرهم من ذلك." ثم يتابع قائلاً أنه كان يمكن أن "يحقق النجاح الأدبي بمزيد من السهولة لو أنه قرر سكب خطته في الصورة غير المسؤولة التي تتخذها في العادة القصة الرومنطيقية."[٦] وبعد نشر الرواية، وعند إهدائه نسخة إلى اللورد روتشيلد، ألحق هيرتسل ملاحظة كتب فيها: "سيكون هناك، طبعاً، أناس أغبياء يقولون إن القضية إنما هي يوتوبيا لأنني اخترت شكل اليوتوبيا الذي استخدمه أفلاطون وتوماس مور. وأنا لا أخشى أي سوء فهم كهذا من جانبكم."[٧] وهو يقول، في كتابه "دولة اليهود"، إن مشروعه يتميز من مجرد مشروع يوتوبي ببلورة "قوة دافعة قائمة".[٨] وبالمثل، فنحن نجد في الرواية تشديداً متكرراً على الآليات الانتقالية التي من شأنها أن تحول الخطة من مجرد تصميم أولي إلى واقع محسوس. والشخصان الأساسيان (لوينبرغ وكينغزكورت) يصران على أنهما يودان أن يعرفا كيف تحققت الفكرة في الواقع. وفي الرواية مقاطع طويلة تصف فيها هذه الشخصية أو تلك الآلية التي جعلت الفكرة الصهيونية فكرة فعالة. ويلجأ هيرتسل في موضع من الرواية إلى سرد روائي مرتبك لينقل إلى القارئ الخطوات التي تحقق المشروع من خلالها؛ وهو يجعل بطليه يستمعان إلى تسجيل صوتي قام به أحد الآباء المؤسسين يروي فيه كيفية قيامهم بذلك.

لكن هذا لا يحل المفارقة، لأن الرواية لا تحتوي حقيقةً على مكونات القوة الدافعة. فهيرتسل يصف الإجراءات اللوجستية لإرسال المهاجرين اليهود من الشتات إلى فلسطين، غير أن روايته لا تفصِّل خطة عمل محددة لإقامة مجتمع يهودي في فلسطين، ولا سيما فيما يتعلق بالطريقة الدقيقة لاستملاك الأرض وطرد السكان المحليين. ويتضح هذا عندما يقابل المرء الرواية بوثيقة مغمورة وضع هيرتسل مسودتها خلال الفترة نفسها تقريباً. ففي وقت ما بين صيف سنة ١٩٠١ وأوائل سنة ١٩٠٢ (أي في الوقت الذي كان يضع فيه اللمسات الأخيرة على روايته)، وضع هيرتسل مشروع اتفاق بين المنظمة الصهيونية العالمية والحكومة العثمانية. وقد نصت الوثيقة على "الامتيازات، والحقوق، والمسؤوليات، والواجبات المترتبة على الشركة العقارية اليهودية ـ العثمانية للاستيطان في فلسطين وسورية."[٩] كانت تلك الوثيقة بمنزلة "الشرعة" التي أمل هيرتسل بإقناع السلطان العثماني بالموافقة عليها من أجل

السماح للحركة الصهيونية باستعمار فلسطين. وخلافاً للرواية، فإن الشرعة تفصِّل الترتيبات العملية الضرورية للاستيطان في فلسطين، ولا سيما بالنظر إلى علاقتها بالسلطات العثمانية والسكان الأصليين. أولاً، كان يحق للشركة العقارية اليهودية ـ العثمانية "أن تستقل استقلالاً تاماً، تكفله السلطنة العثمانية" داخل "أراضيها ذات الامتياز" (المادة السادسة). ومن شأن الشرعة أن تمنح الحركة الصهيونية أيضاً، المتمثلة بالشركة العقارية اليهودية ـ العثمانية، حق شراء كل العقارات، وامتلاك أراضي الدولة العائدة للسلطان في مقابل أجر سنوي، وأن تشغل كل الأراضي التي ليس لها مالك شرعي. والأهم من ذلك أن الأراضي التي تشتريها الشركة العقارية اليهودية ـ العثمانية يمكن مقايضتها بأراض تشتريها الشركة في أماكن أُخرى من السلطنة العثمانية، حيث يُعوَّض ملّاك الأراضي عن نفقات الاستيطان في أماكن أُخرى ويُمنحون قروضاً للسكن وتجهيزاته.[١٠] بعبارة أُخرى: تحتوي الشرعة على خطة مفصلة لاستملاك الأراضي التي سيتم استعمارها وتلك التي سيتم فيها توطين سكان هذه الأراضي خارج فلسطين، بينما لا تحتوي الرواية على أي شيء من هذا القبيل. وهكذا، ومع أن هيرتسل يزعم أن روايته تتميز من الكثير من نظيراتها في هذا النوع بكونها تتسم بسمة عملية، فيجب ألّا يحجب هذا الموقف الطبيعة الحقيقية لهذا العمل. وليس هذا النص، مع كل تشديده على قابليته للتطبيق، خطة عملية في الدرجة الأولى. والواقع أن الانقطاع الذي يدوم اثنتين وعشرين سنة في روايته يمكّن هيرتسل من تحاشي وصف العملية التي من خلالها تم استعمار الأرض، وتجريد أهلها من أملاكهم، وإقامة الدولة فيها. وهذا ما يجعل إصراره المتكرر على أن روايته ليست من نوع اليوتوبيا (وإنما خطة عملية) أدعى إلى الحيرة.

والمفارقة الثانية المتصلة برواية هيرتسل هي غياب زخارف الثقافة والفولكلور اليهوديين من "المجتمع الجديد" ـ وهذا غياب يمتد إلى تسميتها بالذات. وقد دفعت هذه السمة في رواية هيرتسل بأكثر الصهيونيين الثقافيين نفوذاً وأحد أشرس نقاد هيرتسل، ألا وهو أحاد هعام (آشر غينزبرغ)، إلى التعليق بأن لا أثر للإبداع الثقافي اليهودي في يوتوبيا هيرتسل: فثقافتها أوروبية، ولغتها ألمانية، واليهود فيها لا يبدون إلّا كرسل للحضارة الأوروبية في الشرق الأوسط. وأضاف هعام أن روحها عالمية إلى حد أنها تصلح لأن تكون خطة أولية لإنشاء "جمهورية سوداء في إفريقيا". وبالمثل، فإن مارتن بوبر، الذي لم يكن ذلك الناقد الصريح لهيرتسل، ذهب إلى أن الرواية لم تكن "تتصف بصفة واحدة تعبّر عن السمات الشعبية للنهضة العبرية."[١١]

رداً على انتقادات كهذه حاول ماكس نورداو، زميل هيرتسل الوثيق، أن يدافع عنه بالقول إن أشخاص روايته لا يتكلمون العبرية لأن الرواية نفسها كتبت بالألمانية، تماماً مثلما كان يوليوس قيصر يتكلم بالإنكليزية في مسرحية شيكسبير. غير أن دفاع نورداو لا يكاد يستحق التفحص الجاد، لأن إهمال هيرتسل للثقافة اليهودية يذهب إلى أبعد من مجرد اختيار كتابة الرواية بالألمانية. فهو لا ينظر حتى في استعمال العبرية لغة تخاطب مشتركة في المجتمع الجديد. وإنما يعتقد أن اليهود سيستمرون في استعمال لغاتهم الأصلية المتنوعة. وأسماء الأماكن القليلة غير المحلية التي يأتي إلى ذكرها إنما هي أسماء ألمانية (من ذلك نويدورف، وفريدريشسهايم). علاوة على ذلك، فإن المجتمع النموذجي الموصوف في الرواية لا يكاد يحتوي على أي من المظاهر الثقافية التي يتوقع أن ترد في عمل مكرس لوصف دولة قومية للشعب اليهودي.

أخيراً، تتعلق المفارقة الثالثة بكون الكثير من المبادئ التي يدعو إليها هيرتسل في الرواية إنما هي مبادئ يتنكر لها، تصريحاً أو تضميناً، في أماكن أُخرى. فثمة عدد من التدابير العملية والسياسية المعتمدة في الرواية نعلم أنه مما يطّرحه في أعماله الأُخرى، وفي ممارسته الفعلية. وكما يشير شلومو أفينيري: "من الأمور البالغة الدلالة أن مؤسس الصهيونية السياسية الحديثة، الذي كان سياسياً ليبرالياً، إن لم نقل محافظاً معتدلاً، يصف مستقبل المجتمع اليهودي بأنه مبني على أسس اشتراكية، وتعاونية."[١٢] ويحاول الكاتب الإسرائيلي عاموس إيلون أن يحل هذه المفارقة بالقول إن زخارف السيادة وسلطة الدولة لم تعد

تخدع هيرتسل أيام كان يكتب روايته.[١٣] لكن من الواضح أن الأمر ليس على هذه الحال، كما يتبين لمن ينظر إلى شرعته التي تقدم عرضاً مفصلاً للسيادة النسبية لكلتا الشركة العقارية اليهودية ـ العثمانية والدولة العثمانية. إذ يوضح هيرتسل في الشرعة العلاقات السياسية القائمة بين الشركة العقارية اليهودية ـ العثمانية والدولة العثمانية: فسوف يكون للشركة "استقلال تام"، وإن كان رئيسها يخضع لموافقة السلطان ويمثله في البلد. أمّا القوة العسكرية التابعة للشركة العقارية اليهودية ـ العثمانية فقد تحددت أيضاً: سوف تشكّل "الفرقة الإمبراطورية العثمانية السورية ـ الفلسطينية البرية أو البحرية"، التي ستتكون كلياً من جنود يهود يخضعون للتجنيد الإلزامي. وفي زمن السلم ستقوم هذه القوة بحماية حدود سورية وفلسطين؛ أمّا في زمن الحرب فتستعمل للدفاع عن الأجزاء الآسيوية من السلطنة العثمانية. وخلافاً لهذا، فالمجتمع الجديد في الرواية مجرد من السلاح، ويتسعيض عن الخدمة العسكرية بالخدمة الاجتماعية. ومع أن الشرعة لا تدعو إلى منح الشركة العقارية اليهودية ـ العثمانية استقلالاً غير محدود، فإنها تمنح هذه الشركة استقلالاً محدوداً ومعظم زخارف الدولة من: سلطة تنفيذية، جيش تحت السلاح، حدود آمنة، سلامة الأراضي، حق جباية الضرائب من رعاياها، وما إلى ذلك.

ومن أجل حل هذه المفارقة الثالثة، ربما قيل إن الكثيرين من مؤلفي الأعمال اليوتوبية كثيراً ما يطرحون أفكاراً لا يعتقدونها على وجه التحديد، وربما فعلوا ذلك على سبيل السخرية من أشكال النظام الاجتماعي الذي يودون انتقاده. فقد ذهب البعض إلى أن إدخال أفلاطون النساء في عداد طبقة الحراس في "الجمهورية" إنما هو من هذا القبيل. كما أن ثوماس مور يكتب عن لسان رحّالته إلى يوتوبيا: "طبعاً، لقد شاهد الكثير مما يستوجب الإدانة في العالم الجديد، لكنه اكتشف أيضاً عدة نظم تشير إلى وسائل يمكن اعتمادها في إصلاح المجتمع الأوروبي."[١٤] ويشير غير واحد من كتّاب اليوتوبيا، تصريحاً أو تلميحاً، إلى أن غايتهم ليست مناصرة كل الأفكار المعمول بها في المجتمع اليوتوبي، وإنما إقامة مقارنة مثيرة للاستياء بين الأفكار اليوتوبية وتلك السائدة في مجتمعاتهم. غير أن عمل هيرتسل لا يمكن أن يقال عنه إنه ذو وظيفة نقدية أولاً، أو إنه كتب بهدف السخرية. وهو لم يكن يدعو إلى إصلاح واسع النطاق للمجتمع القائم على أساس أن البديل أرقى من الأحوال القائمة، وإن كان يبدو مستغرباً أو غير قابل للتنفيذ. بل إن سلوكه وأعماله تظهر أنه كان منخرطاً، بنشاط، في إقامة وطن يهودي؛ وهو لم يقترح هذا كفكرة لا يراد منها إلّا الإشارة إلى النواحي السلبية لأوضاع يهود الشتات في أوروبا.

ردٌّ تأويلي

وتبقى المفارقات الأصلية. لمَ كتب هيرتسل يوتوبيا تناصر أفكاراً مباينة لمبَادئه الأيديولوجية الخاصة، ولا سيما عندما لا يبدو المجتمع الموصوف فيها يهودياً بصورة مميزة، وعندما يتنكر هو صراحة للنزعة اليوتوبية؟ سأقترح في هذا القسم تأويلاً للرواية أراه قادراً على تقديم حل للمفارقات المبينة في القسم السابق. وينطلق التأويل من فرضية أنه يجب ألّا تعتبر الرواية عملاً موجهاً حصراً، أو في الدرجة الأولى، إلى اليهود أنفسهم. بل الأولى أن تُقرأ باعتبارها محاولة لإقناع الجمهور الأوروبي غير اليهودي. فهي ليست، كما قال هيرتسل، "حكاية أرويها قرب نار المخيم لرفع معنويات شعبي المسكين في أثناء رحلته"،[١٥] بل إنها إنما تفهم على الوجه الأصح باعتبارها عملاً يهدف إلى إقناع غير اليهود بقبول فكرة دولة يهودية. والمراد منها إقناع جمهور أوروبي بالموافقة على إقامة دولة يهودية لا من أجل اليهود، وإنما من أجل الأوروبيين غير اليهود. وبتعبير أوضح، كان قصد هيرتسل أن يصف مجتمعاً نموذجياً لحمل الأوروبيين غير اليهود على تصور الدولة اليهودية حقل اختبار لأفكار متنوعة من شأنها إذا ما نجحت أن تطبق في أوروبا. وهكذا تُصَوَّر الدولة اليهودية باعتبارها ضرورية لأن من شأنها أن تشكل ميداناً لمختلف المخططات التجريبية التي كان الأوروبيون يهتمون بها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وليس من الضروري أن يكون هيرتسل نظر إلى خطته باعتبارها تجربة، بل إنه كان مستعداً لأن يصورها

بهذه الصورة في محاولة لكسب التأييد للمشروع الصهيوني.

هذا التأويل يساعد على حل المفارقة الأولى. فالحقيقة أن التبرؤ من النزعة اليوتوبية ليس ظاهرة غير مألوفة عند المفكرين اليوتوبيين، ولا سيما في الخطاب ما بعد الماركسي. لكنني أرى أن رفض الميسم اليوتوبي يصبح ضرورياً في حالة هيرتسل جراء كون الجمهور المستهدف ليس أولئك الذين يتوقع أن ينشئوا المجتمع النموذجي ويكونوا المستفيدين الأساسيين منه. ونظراً إلى الحاجة إلى الحصول إلى أكبر جاذبية ممكنة، وإقناع أوسع جمهور ممكن بفوائد قيام دولة يهودية، فإن هيرتسل لا يستطيع تحمل تهمة الافتقار إلى الواقعية. ولذلك فإن إصراره على كون المشروع ممكناً عملياً، ورفضه النزعة اليوتوبية، يكتسيان أهمية أعظم مما قد يكتسيان فيما لو كان يتوجه بروايته إلى اليهود في الدرجة الأولى.

من الواضح أن هيرتسل يتخذ أوروبا، والغرب عامة، منطلقاً في هذا العمل. كما يبدو أن رسالته في معظمها مصممة لمخاطبة جمهور أوروبي غير يهودي. فمن ذلك أن وصفه لحيفا، والذي لخصناه آنفاً، يظهرها بمظهر مدينة غربية تماماً تحوي مصارف استعمارية وشركات شحن بحري أوروبية، وتسود فيها "أزياء غربية رصينة" (ص ٦١). وقد تحولت بذلك إلى رأس جسر للرأسمالية والحضارة الغربية في الوقت نفسه. وينطبق الشيء نفسه على جزء ريفي أكثر في المجتمع الجديد، هو القنيطرة في مرتفعات الجولان،[١٦] التي يصفها هيرتسل بأنها "مدينة مزدهرة بالأعمال"، إذ "لم يريا فيها إلاّ القليل من البضائع الشرقية في المتاجر، التي كان معظمها وكالات لشركات أجنبية" (ص ٢٣٧). وقد أضحى البلد، بعد التخلص من السكان الأصليين (باستثناء أقلية استُبقيت لإضفاء لون من العالمية على المجتمع يستدعي عدة مقارنات مع إيطاليا والريفييرا (ص ٩٦، ١٢٠، ١٢١، ١٥٩، ٢٦٣). وفي هذه الأثناء، يوضح هيرتسل لقرائه أن الأبطال الحقيقيين للمجتمع الجديد إنما هم المنظرون الاجتماعيون، والمخترعون، وحتى المزارعون الرواد الأوروبيون والأميركيون الشماليون. وكما يقول الزعيم السياسي الديناميكي ديفيد ليتواك للمزارعين اليهود في نويدورف، وهي مستعمرة زراعية نموذجية: "لا تظنوا أنني أمزح عندما أقول إن نويدورف لم تبن في فلسطين، وإنما في مكان آخر. فقد بنيت في إنكلترا، وفي أميركا، وفي فرنسا، وفي ألمانيا. وتطورت من تجارب واختبارات، وكتب، وأحلام. وقد قُيِّض للتجارب غير الناجحة لكلا الحالمين والرجال العمليين أن تكون بمنزلة عبر ودروس لكم، وإن كنتم لا تعلمون ذلك" (ص ١٤٣). ثم يمضي قدماً في تعداد أسماء عدد من الأوروبيين والأميركيين الذين دعوا إلى مشاريع اشتراكية ويوتوبية متنوعة في القرن التاسع عشر.

غير أن موقف المركزية الأوروبية يذهب إلى أبعد من الإشارات التشبيهية المتكررة بأوروبا والتعبير عن المديونية للحضارة الأوروبية، لأنه بيِّن في حضور كينغزكورت البارز في الرواية؛ فهو لا يتحدر من أصل بروسي نبيل فحسب، بل يتصف أيضاً ببعض المواقف المعادية لليهودية، ويتصرف تصرف المستمع والمحاور الأساسي. ومن الإنصاف أن نقول إن كل تفسير من التفسيرات والتبريرات الكثيرة لكيفية اشتغال كل مظهر نراه في الرواية من مظاهر الحياة في "المجتمع الجديد" إنما هو مطلوب عملياً من جانب كينغزكورت غير اليهودي وموجه إليه، بينما يصوَّر اليهودي لوينبرغ في دور مساند فحسب.[١٧]

ويتضح هذا من الطريقة التي يتدبر بها هيرتسل خروج كينغزكورت متأثراً من الرحلة المنظمة. إلى حد أنه يطرح جانباً بغضه للبشر (عدا عداءه لليهودية) ويختار الانضمام إلى المجتمع اليهودي في نهاية المطاف. وتجري القصة نفسها على نحو رمزي في حبكة فرعية من الرواية، وذلك في تعلق كينغزكورت المفرط بفريتزشن الطفل ابن ليتواك. إذ يجد النبيل البروسي السيئ المزاج نفسه يُستعبد بالتدريج للصبي فيدب معه على أربع هنا وهناك، ويداعبه برفق وبشتى الطرق. وعندما يصاب الصبي بمرض خطر، فإن هممهات كينغزكورت هي الشيء الوحيد الذي يهدئه، ولذلك نراه يعاهد نفسه على البقاء إلى الأبد إذا ما عوفي الصبي (ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩). ففي هذه القصة الموازية، يرمز الطفل إلى المجتمع الوليد،

الذي يتلقى العناية والرعاية ليبقى في قيد الحياة على الرغم من صعوبة البقاء وهشاشته. أمّا التزام كينغزكورت فيمثل، فيما يبدو، مبادرة أوروبية لمساندة المجتمع الجديد في أوقاته الحرجة. علاوة على هذا، فإن هذه المبادرة إنما تنطلق من أجل مفعولها العلاجي بالنسبة إلى أوروبا، التي تحتاج إلى أمل جديد لتجديد شبابها. ومع أن كينغزكورت لا يقر بذلك، فإن هيرتسل يخبرنا "أن كاره البشر المزعوم... قد انجرف في هوى الطفل"، مطّرحاً خيبة أمله ومستعيداً ثقته بالإنسانية (ص ٢٦٩). وتيار العداء لليهودية، متمثلاً في كينغزكورت، هو جزء من الجمهورية الذي تستهدفه الرواية، ويأمل هيرتسل أن هذا الجمهور سيعتبر هذا المشروع مرغوباً فيه وقابلاً للتحقيق في الوقت نفسه ـ لا من أجل اليهود وإنما من أجل أوروبا الخائبة الرجاء نفسها. قبل ذلك، وبصورة حرفية أكثر، كان كينغزكورت صاغ الفكرة بأصرح ما يكون من صورة: "أنتم اليهود... يمكن أن تشكلوا أرض الاختبار للبشرية" (ص ٥٠).

وإضافة إلى أعداء السامية من الأوروبيين، يخاطب هيرتسل صراحة أولئك الذين يعترضون على الصهيونية باعتبارها أيديولوجيا قومية شوفينية معادية لمثلَيْ التسامح والتعددية. ورداً على "المحدثين المزعومين" (ولعل هؤلاء هم الليبراليون المتنورون)، الذين كانوا يعتبرون الصهيونية "ردة فعل غبية، وضرباً من الإرهاب الألفي المسيحاني"، يشير هيرتسل إلى أن المجتمع الجديد يسمح بحرية العبادة والاعتقاد، ويتصف بالتسامح مع الأديان كافة، حتى مع نوع من الإنسانوية الدنيوية (ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩). ولهذه الغاية فهو يصف عشاء لعيد الفصح اليهودي حضره كاهن روسي، وراهب فرنسيسكاني، وقس إنكليزي (لكن بغياب أي رجل دين عربي مسلم أو مسيحي). وبعد هذا العشاء يعلق هيرتسل بأن روح التسامح هذا يظهر أن "ربيعاً جديداً قد حل على البشرية" (ص ١٩١). والواقع أن غير اليهود من الأوروبيون ومن باقي الأمم لا يتوقع منهم أن يشاركوا في المجتمع الجديد فحسب، بل أن يجلسوا أيضاً لإبداء الحكم فيه، إذ إن هيرتسل يصف خطة تقضي بأن يقوم فريق من المثقفين الدوليين بزيارة هذا المجتمع مرة كل ٢٥ عاماً ويعمل عمل "محكمة عليا، ننحني أمام حكمها" (ص ٢٣٢). ولن يُغَشّ هؤلاء "الحكام الموقرون" بقرى خاوية رائعة المظهر على غرار قرى بوتمكين المزيفة، ولا بمشاريع وهمية، بل إنهم سوف يلقون نظرة قاسية ونزيهة إلى البلد ويتصرفون تصرف محكمة دولية تقوِّم تقدُّم المجتمع الجديد وتبقيه تحت المراقبة.

إن هذا التأويل المقترح للرواية من شأنه أن يمكننا كذلك من حل المفارقة الثانية: ضآلة الثقافة اليهودية في المجتمع الجديد. ففي إطار التأويل الحاضر يصبح سبب السمة العالمية وغير اليهودية لهذا المجتمع مفهوماً. فاستقبال الرواية من جانب بعض أبرز المثقفين الصهيونيين كان فاتراً على ما رأينا. والحق أن التأويل المقدم هنا لا يبعد كثيراً عن حكم أحاد هعام السلبي بأن الرواية إنما كتبت لـ "خطب ود غير اليهود."[١٨] غير أن القراءة المقترحة للرواية تختلف اختلافاً جوهرياً عن تقويم هعام، إذ تنظر هذه القراءة إلى الرواية باعتبارها كتبت لإقناع غير اليهود بفكرة إنشاء دولة يهودية لما فيه مصلحتهم، لا لخطب ودهم فحسب. والواقع أن مكان الدين اليهودي والثقافة اليهودية في المجتمع الجديد ملتبس جداً ويداني التناقض. ففي بعض الأحوال تبدو اليهودية شرطاً مسبقاً للانضمام إلى هذا المجتمع. من ذلك ما يروى من قصة المهندس السويسري المسيحي الذي بعدما عمل في قناة البحر الأحمر "كان على درجة من الحماسة للصهيونية بحيث تهوَّد وتسمى بأبراهام" (ص ٢٠٩). لكن على الضد من ذلك، لا ذكر لأي تهوُّد فيما يتعلق بقرار كينغزكورت الانضمام إلى المجتمع الجديد. والحق أن أكثر من شخصية تصر على أن اليهودية ليست شرطاً مسبقاً للانضمام. ويصرح جوزف ليفي، أحد الأدمغة المخططة لمشروع استعمار فلسطين، في معرض الكلام على اجتذاب المستثمرين والمستعمرين، "إننا لم ننجرف قد وراء الاعتبارات العرقية أو الدينية. كل من كان يريد العمل في تراب إسرائيل كان موضع ترحيب" (ص ٢٢١). وثمة إشارات متقطعة إلى المثال الصهيوني الهادف إلى بناء "يهودي جديد" على غرار ديفيد ليتواك. "بات اليهود يبدون مختلفين الآن، على حد قول هيرتسل، لا لشيء

إلاّ لأنهم ما عادوا يخجلون من كونهم يهوداً. ما عاد المتسولون وحدهم، والمنبوذون، والمتقدمون بطلبات المساعدة، هم الذين يجاهرون باليهودية في مسعى للتضامن مشبوه وأحادي الجانب، لا! بل اليهود الأقوياء، والأحرار، والناجحون، هم الذين عادوا إلى وطنهم، وتلقوا أكثر مما أعطوا" (ص ٢٥٢ـ ٢٥٣). لكن في معظم الأحيان يتوارى هذا العنصر اليهودي المميز إلى الخلفية ولا يبدو إلاّ نادراً؛ فتجديد شباب اليهود إنما هو من الفوائد الإضافية لنشوء المجتمع الجديد. ولا يبدو على المؤسسات الثقافية الكبرى (جامعة صهيون، الأكاديمية اليهودية، قصر السلام) أية علامات يهودية واضحة. فقصر السلام محل لمؤتمرات دولية يعقدها العلماء ومحبو السلام، ويستعمل مركزاً لتنظيم المساعدة في أحوال الكوارث في العالم أجمع (ص ٢٤٨ ـ ٢٥٠). والأكاديمية اليهودية منسوخة على غرار الأكاديمية الفرنسية ويمولها ثري أميركي، ويديرها أربعون يهودياً "يلتقون على أساس من إنسانيتهم المشتركة" (ص ٢٥٩).

أمّا المفارقة الثالثة، فتصبح قابلة للحل بناء على هذا التأويل. فلئن لم تكن الغاية وضع خطة أساسية محددة يأمل هيرتسل ويتوقع تطبيقها بقدر ما كانت تصور شكلاً من التنظيم الاجتماعي من شأنه أن يبدو جذاباً في نظر جماعة واسعة من الناس، الذين كان هيرتسل يريد كسب تأييدهم لقضيته، يصبح من الأيسر أن نفسر واقع أنه يقترح أفكاراً تتعارض ومبادئه الأيديولوجية الخاصة. يجزم إيلون أن هيرتسل "صمم نوعاً أصيلاً من أنظمة الحكم، يقوم على المبادئ النقابية المستمدة في بعض أوجهها من الفكر الفوضوي الفرنسي."[١٩] ويضيف إيلون: "كان بطلا الرواية يأملان بأن يطبق النظام الاجتماعي الجديد في كل مكان، لمعالجة شرور الرأسمالية الصناعية من دون اللجوء إلى سلطوية الاشتراكية."[٢٠] لكن بدلاً من أن يستدل على أن تبني هيرتسل لهذه المبادئ إنما كان مسألة تكتية مصممة لإقناع المثقفين غير اليهود، فإنه يذهب إلى أن هيرتسل غيّر رأيه تغييراً "دراميا" في شأن مسائل سياسية أساسية. غير أن الذهاب إلى حدوث تحول سياسي كامل حكم متهور، ولا يستند إلى البينات المتوفرة خارج النص. فشرعة الشركة العقارية اليهودية ـ العثمانية التي وضعها هيرتسل بعد الفراغ من روايته، إنما تقوم على خطة رأسمالية للاستثمار ولا تأتي، كما بينا أعلاه، إلى أي ذكر للتعاونيات الاشتراكية. ولذلك، فبدلاً من افتراض أن هيرتسل مرّ بتحولين سياسيين خَطري الشأن خلال مدة لا تتجاوز بضعة أعوام قليلَة، فإن من الأرجح في العقل أن المبادئ السياسية التي يدعو إليها في الرواية لم تكن مما يعتقده هيرتسل، وإنما تم الدفاع عنها من أجل إقناع جمهور معين. ومما يدعم ذلك أن هذه المبادئ كانت مصممة بحيث تعجب أوسع جمهور ممكن. والالتزام بالاشتراكية في الرواية ليس تاماً أبداً، بدليل أن هيرتسل يهدف إجمالاً إلى تحقيق ضرب من الحل الوسط بين الاشتراكية والرأسمالية. فكما يفسر ذلك ليتواك: "هنا لا يُسحق الفرد في طاحونة الرأسمالية، ولا يُقطع رأسه بمحدلة الاشتراكية" (ص ٩٠). صحيح أن المبادئ الاشتراكية كانت تحظى بشعبية واسعة في صفوف الجماهير اليهودية في الوقت الذي كان هيرتسل يكتب فيه (والشاهد عليه قوة المنظمة غير الصهيونية واسمها "البوند").[٢١] ومع ذلك، فمن الصحيح أيضاً أن بعض هذه المبادئ كان يجتذب قطاعات واسعة من الإنتليجنسيا غير اليهودية. علاوة على ذلك، فإن هيرتسل حين يلطف هذه المبادئ بجرعة قوية من الرأسمالية، يراهن على اجتذاب المثقفين من اليمين واليسار. ولا شطط في القول إن مزيج السياسات الاجتماعية ـ الاقتصادية الذي نجده في الرواية لا يمثل قناعات هيرتسل الخاصة، بل إن هذا المزيج مصمم بحيث يكسب تأييد أكبر عدد من الأنصار، ولا سيما (لا حصرياً) في صفوف غير اليهود.

خاتمة

حاولتُ في هذه الدراسة أن أطرح تأويلاً معيناً لرواية هيرتسل *Altneuland*. ومع أن لهذا التأويل صلة تُقارب الحكم الذي أصدره على الرواية أحد أعنف منتقدي هيرتسل من معاصريه، أحاد هعام، فإنه يختلف عن النظرة التي نظرها الكتّاب المعاصرون إلى هذا العمل. فقد مالوا إجمالاً إلى اعتبار الرواية قطعة سوية من الكتابة

اليوتوبية التي استهدفت أساساً أولئك الذين كان يتوقع منهم أن ينشئوا المجتمع اليوتوبي موضوع البحث. حتى الكتّاب الذين انتقدوا الرواية انتقاداً حاداً، مثل بني موريس، ظلوا يتأولونها على ظاهر حالها باعتبارها تجسيداً لـ "رؤية يوتوبية".[٢٢] والقراءة التي أقترحها تختلف عن حكم هعام السلبي من حيث أنها تنسب إلى هيرتسل موقفاً تبشيرياً، يرتكز على البرهنة عن الفوائد التي يجنيها غير اليهود من خطته. كما أن هذه القراءة تحاول أيضاً أن تحل ثلاث مفارقات أساسية أزعم أن روايته تنطوي عليها: التنكر للميسم اليوتوبي؛ غياب الثقافة اليهودية؛ اعتناق مبادئ تتعارض وقناعات هيرتسل الخاصة. وقد سعيت لتبيان أن هذه المفارقات الثلاث يمكن أن تحل بطريقة مرضية إذا ما امتنع المرء من النظر إلى الرواية باعتبارها موجهة أصلاً لإقناع اليهود بمرغوبية إقامة دولة يهودية.

والتأويل المقترح يستند بصورة شبه حصرية إلى بينات **من داخل** النص. وربما جاز لأحدهم أن يحتج بأن الأطروحة يجب أن تمتحن عبر اختبار الاستقبال الذي حظيت به الرواية. لكن هذا ليس ضرورياً بالتحديد من أجل نجاح هذا التأويل، لأنني لست معنياً بالاستقبال الفعلي للرواية، وإنما بالاستقبال **المأمول به**. وبالنسبة إلى هذا المطلب الأخير، فإن ثمة مزيداً من البينات المتوفرة من "يوميات هيرتسل". فعلى الرغم من وصفه الخاص للرواية بأنها حكاية يجب أن تروى للجماهير اليهودية الزاحفة إلى فلسطين، فإن مداخل أُخرى من "يوميات هيرتسل" تومئ إلى دافع آخر. وتشير هذه اليوميات إلى أن هيرتسل أرسل، عند صدور الرواية، ثلاث نسخ موقعة: اثنتين إلى اثنين من النبلاء الألمان، والثالثة إلى اللورد روتشيلد. وقد قُدمت النسخة الأولى إلى دوق بادن الكبير، الذي وُصف بأنه أكثر أمراء ألمانيا ديمقراطية وليبرالية في ذلك الوقت، والذي أصبح مؤيداً صلباً للصهيونية بعد التقائه هيرتسل. ومن دواعي السخرية أن هيرتسل يصف الرواية، في الرسالة المرفقة بنسخة بادن، بأنها "حكاية أرويها قرب نار المخيم." غير أنه يضيف، بطريقة لا تخلو من الدلالة، أنه يعتقد "أن **كل الأمم** تسير على الدوام نحو مجتمع جديد."[٢٣] وقد أُرسلت نسخة أُخرى إلى الأمير برنهارد فون بيلو، الذي أصبح مستشاراً للإمبراطورية الألمانية سنة ١٩٠٠. وفي الرسالة المرفقة تنكّر هيرتسل، مرة أُخرى، للنزعة اليوتوبية قائلاً بمكر: "في الواقع إنما كتبتُ اليوتوبيا لأظهر أنها ليست من اليوتوبيا في شيء." ثم لاحظ بإلحاح: "وهي تعالج أيضاً مجتمعاً مستقبلياً ـ **لا مستقبل اليهود فحسب**."[٢٤] والإشارة اللاحقة الوحيدة إلى الرواية في "يوميات هيرتسل" مدخل مؤرخ ٢٣ كانون الثاني / يناير ١٩٠٤، يسجل فيه أنه قدم نسخة إلى الملك فيكتور إيمانويل الثالث ملك إيطاليا، بعد طلب الأخير، عقب محادثة ناقش فيها هيرتسل فكرته عن قناة البحر الميت.[٢٥] إن كون ثلاثة من الأربعة الذين تلقوا نسخاً عن الرواية والمذكورين في "يوميات هيرتسل" هم من الأرستقراطيين الأوروبيين البارزين من غير اليهود، لأمر بالغ الدلالة. لكن الأبلغ دلالة من ذلك هو أنه يشدد، في مخاطبة كل من هذه الشخصيات، على قابلية أفكاره للتطبيق بصورة **عامة** وملامحها **الكلية**.

والقول إن الظاهر أن هذه الرواية موجهة أساساً إلى غير اليهود لا يعني طبعاً أنهم الجمهور الوحيد المستهدف بها. ومن المبالغة في التبسيط أن ننسب إلى هيرتسل دافعاً واحداً متراصاً، بل إن الهدف هنا هو لفت الانتباه إلى أنها لا يمكن أن تُقرأ باعتبارها موجهة إلى الجوالي اليهودية الأوروبية حصراً، ولا حتى أساساً. ولذلك كان من الملائم أن تظل الرواية مغمورة نسبياً داخل الأدبيات الصهيونية المعاصرة. وعلى الرغم من المجازات والموضوعات التي قُيِّض لها أن تقوم بدور في الفكر والكتابة الصهيونيين اللاحقين، فإن أثرها المباشر في الصهيونية كان محدوداً نسبياً، ولا وجود لدلائل كافية على أنها ضربت جذورها في "المخيلة الثقافية" اليهودية. أمّا أبرز تركة خلفتها فيبدو أنها تنحصر في تسمية مدينة تل أبيب. فقد اختار ناحوم سوكولوف "تل أبيب" عنواناً للترجمة العبرية للرواية، وأصل التسمية يرقى إلى اسم مدينة بابلية مذكورة في سفر حزقيال من أسفار العهد القديم. ■

المصادر

١ يبدو أن فكرة الرواية كانت تعتمل منذ أربعة أعوام على الأقل قبل رحلة القطار هذه. والواقع أن هيرتسل يذكر الرواية في المداخل الأولى من يومياته، في أيار / مايو ١٨٩٥. ويكتب عن المشروع الصهيوني قائلاً: "لئن لم تترجم فكرتي إلى واقع، فسيخرج من نشاطي رواية على الأقل." أنظر:
Complete Diaries, ed. Raphael Patai, trans. Harry Zohn (New York: Herzl Press and Thomas Yoseloff, 1960), p. 3.
وهو يضيف إضافة بليغة الدلالة: "الحقيقة أنني ما عدت متأكداً من أن الرواية لم تكن صاحبة الأولوية في ذهني - وإن لم تكن قائمة كشيء (أدبي) يطلب لذاته، بل مجرد شيء يخدم هدفاً." عن دراسة لعمل هيرتسل في الرواية، أنظر:
Amos Elon, *Herzl* (New York: Schocken Books, 1986), pp. 347 - 351.

٢ Herzl, *Old-New Land*, revised edition, trans. Lotta Levensohn (New York: Bloch, 1960), p. 8.
سيوضع باقي الإحالات إلى الرواية بين هلالين في النص.

٣ ثمة تشابه صارخ بين انطباعات هيرتسل الفعلية عن فلسطين والمشرق خلال إقامته القصيرة وبين الأوصاف التي نجدها في روايته، أنظر:
Herzl, *Complete Diaries*, op. cit, pp. 737 - 760.
من ذلك أنه يصف القدس كما يلي: "إن الرواسب العفنة التي خلفها ألفا عام من اللاإنسانية، والتعصب، وانعدام النظافة، تنتشر في الأزقة الكريهة الرائحة" (ص ٧٤٥).

٤ يقول هيرتسل في يومياته أنه ينوي "تطهير" (ص ٧٤٦) المدينة القديمة، ويتحدث أيضاً عن "تنظيفها" (ص ٧٥٧). أمّا كون هذه كنايات عن طرد السكان المحليين فيتبين من اعترافه الصريح أنه سوف "أفرغ أوكار القذارة وأقضي عليها... وأنقل البازارات إلى مكان آخر" (ص ٧٤٦).

٥ Shlomo Avineri, *The making of Modern Zionism: Intellectual Origins of the Jewish State* (London: Weidenfeld & Nicolson, 1981), p. 99.

٦ Herzl, *The Jewish State*, translated by Sylvie D'Avigdor, 5th edition (London: H. Pordes, 1967), p. 7.

٧ Herzl, *Complete Diaries*, op. cit., p. 1357.

٨ Herzl, *The Jewish State*, op. cit., p. 8.

٩ تجد النص الكامل للوثيقة وتحليلها في:
Walid Khalidi, "The Jewish - Ottoman Land Company: Herzl's Blueprint for the Colonization of Palestine," *Journal of Palestine Studies* XXII, no. 2 (Winter 1993), pp. 30 - 47.

١٠ Ibid., pp. 32 - 34.

١١ Elon, *Herzl*, p. 350.
وينبغي لهذه الانتقادات الموجهة إلى هيرتسل أن توضع في سياق السجال الدائر بين أمثال بوبر وهعام الذين كانوا يعتبرون أن النهضة الثقافية للشعب اليهودي هي الغاية التي على الصهيونية أن تسعى لبلوغها، وبين أولئك الذين سعوا أولاً وقبل أي شيء لإنشاء دولة قومية كهيرتسل. وكما يلاحظ إيلون، فإن انتقادات هعام للرواية كانت أعنف هجوم له على هيرتسل حتى ذلك التاريخ. وللمزيد من السجال بين ما كان يَسمه هعام بـ "الصهيونية الروحية" وبين "الصهيونية السياسية"، أنظر:
David Vital, *Zionism: The Formative Years* (Oxford: Oxford University Press, 1982), pp. 348 - 364.
See also, Arthur Hertzberg, *The Zionist Idea: A Historical Analysis and Reader* (Garden City, New York: Doubleday, 1959), pp. 52 - 72.

١٢ Avineri, op. cit., p. 97.

١٣ Elon, op. cit., p. 348.

١٤ Thomas More, *Utopia*, trans. Paul Turner (London: Penguin, 1965), p. 40.

١٥ وهذا هو وصف هيرتسل للرواية، أنظر:
Complete Diairies, op. cit., p. 1356.

١٦ وهذا من المؤشرات النادرة إلى اتساع حدود المجتمع الجديد. ومن التلميحات الأُخرى وصفه لشبكة القطارات الكهربائية في البلد، والتي يبدو أنها تمتد "من جبل لبنان إلى البحر الميت، ومن البحر الأبيض المتوسط إلى حوران" (ص ١٢٩). ويذكر هيرتسل، في موضع آخر من الرواية، أن الأثرياء من أهل المجتمع الجدي كانوا يمضون أشهر الصيف في جبال لبنان هرباً من الحر (ص ١٦٥.١٦٦).

١٧ إن اسم كينغزكورت الإنكليزي الصيغة (ومعناه الحرفي: بلاط الملك) يومئ إلى مساعي هيرتسل لكسب تأييد عدد من الملوك والأرستقراطيين الأوروبيين لقضية الصهيونية.

١٨ Elon, op. cit., p. 350.

١٩ Ibid, p. 348.

٢٠ Ibid, p. 349.

٢١ عن الجاذبية القوية التي كانت للاشتراكية في صفوف البروليتاريا اليهودية، وفي جملتها منظمة "بوند"، أنظر:
Zeev Sternhell, *The Founding Myths of Israel, trans.* David Maisel (Princeton: Princeton University Press, 1998).

٢٢ Benny Morris, "Looking Back: A Personal Assessment of the Zionist Experience," *Tikkun*, March / April 1998.

٢٣ Herzl, *Complete Diairies*, op. cit., p. 1356.
(التشديد من الكاتب).

٢٤ Ibid., p. 1358.
(التشديد من الكاتب).

٢٥ Ibid., p. 1598.

٢٦ Haim Blanc, "Druze Particularism: Modern Aspects of an Old Problem," *Middle Eastern Affairs* 3 (November 1952), pp. 315-321.

٢٧ ومعنى التقية بالعربية الحرص والتنبه. وممارسة التقية شيعية الأصل. وهي تسمح باعتماد الأشكال الخارجية للشعائر السنّية من أجل حماية العقيدة الداخلية. وممارسة الدروز للتقية أشبه بالمبدأ الذي يعتمده الإسماعيليون والعلويون.

٢٨ أنظر:

Layish, op. cit., pp. 246-275.

٢٩ أنظر: نسيم دانا، "ها ـ دروزيم" (الدروز)، (رامات غان، إسرائيل: جامعة بار ـ إيلان، ١٩٩٨)، ص ٢٢٠.

٣٠ انخفضت ملكية الأرض في القرى الدرزية جراء المصادرة، من ٣٣٧,٩١٦ دونماً في سنة ١٩٤٥ إلى ٩٧,٣٨٦ دونماً في سنة ١٩٦٢. وإذا رغبت في الاطلاع على جدول يظهر ملكية الأراضي في القرى الدرزية بين سنة ١٩٣٩ وسنة ١٩٩٥، أنظر:

Kais M. Firro, *The Druzes in the Jewish State: A Brief History* (Leiden: E. J. Brill, 1999), p. 141.

٣١ أرشيف دولة إسرائيل، CL/13012/1352، تقرير اللجنة، ٢٠ أيار / مايو ١٩٧٥، ص ١٣ ـ ١٤.

٣٢ في التسعينات كان العرب، وفي جملتهم الدروز، يحصلون على ١,٣٦٪ ـ ٣,٤٪ من مجموع كمية المياه المخصصة للزراعة، سيكوي (جمعية تعزيز تكافؤ الفرص)، "شيفيون فِـ ـ شيلوف" (المساواة والاستيعاب)، (القدس: سيكوي، ١٩٩٥)، ص ٣٣.

٣٣ وسرعان ما انقسمت المنظمة إلى فريقين: فريق يدعو إلى الالتحاق بباقي الطوائف العربية في النضال ضد الحكم العسكري ومصادرة الأراضي، وآخر يريد تركيز "نضالهم على المساواة الحقيقية لا الصورية" للدروز في إسرائيل.

٣٤ أرشيف دولة إسرائيل، وزارة الخارجية، ٣/٣٤١٣، تقرير، ٧ أيار / مايو ١٩٦٢.

٣٥ أرشيف آبا حوشي، تقرير سري جداً (بلا تاريخ دقيق، نحو سنة ١٩٦٢)، ص ١٤ ـ ١٥.

٣٦ "هآرتس"، ١٤/١١/١٩٦٦.

٣٧ Gabriel Ben - Dor, *The Druzes in Israel: A Political Study* (Jerusalem: Magnes Press, 1979), pp. 98-99.

٣٨ Ibid., pp. 225 - 232.

٣٩ أرشيف دولة إسرائيل، CL2/13012/1352، يوسف نصر الدين إلى م. بيغن، ٦ أيلول / سبتمبر ١٩٧٧.

٣٣ George Giacaman, "In the Throes of Oslo: Palestinian Society, Civil Society and the Future," in Giacaman and Lonning, eds., op. cit., p. 6.

٣٤ راجع دراسة جميل هلال في شأن تركيبة السلطة الفلسطينية: "النظام السياسي الفلسطيني بعد أوسلو: دراسة تحليلية نقدية" (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية؛ رام الله: مواطن، المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية، ١٩٩٨).

٣٥ Rema Hammami and Penny Johnson, "Equality with a Difference: Gender and Citizenship in Transitional Palestine," *Social Politics* (Fall 1999).

٣٦ ويمكن اجتناء خلاصة جيدة لهذه المواقف المتناقضة من وقائع الندوة التي نظمتها "مواطن" في رام الله في ٩ كانون الأول / ديسمبر ٢٠٠٠. وقد كان من جملة المتكلمين ياسر عبد ربه، ومصطفى البرغوثي، وعزمي بشارة، وإبراهيم دقاق، وجورج جقمان، ومحمود نوفل ("الأيام"، رام الله، ٢٠٠٠/١٢/٩).

٣٧ عن مراجعة لردة فعل المستوطنين على نيري ليفني، أنظر:
"Time to Leave," *Ha'Aretz Magazine*, 24 November 2000, pp. 9-11.

٣٨ Shahar Ginosar, "A Jewish Majority Supports The Evacuations of Settlements," *Yediot Aharonot*, 8 December 2000;
مترجم إلى العربية في "الأيام" (رام الله)، ٢٠٠٠/١٢/١٢. وقد قام بالدعوة إلى الانتخابات مصطفى البرغوثي، من زعماء حزب الشعب، وعزمي الشعيبي من فدا.

٣٩ "الأيام" (رام الله)، ٢٠٠٠/١١/٦.

يصدر قريباً عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية

الكفاح المسلح والبحث عن الدولة، ١٩٤٩-١٩٩٣

يزيد صايغ

المصدر: مجلة "نتيف"، العدد ٦ (٧٧)، تشرين الثاني / نوفمبر ٢٠٠٠، ص ٧.

المصدر: Le Monde, 3 octobre 2000.

أعادت "لو موند" نشر الرسم، مع مجموعة مختارة من الرسومات، في ملحق خاص وزع مع العدد الصادر بتاريخ ٢٠٠٠/١٢/٣١. وقد أخذنا الرسم من الملحق المذكور.